# النظــريّة الإصلاحيّة عند الشيخ محمد الخضر حســـين1873 - 1958م

د. مـــــــروى بنت الــزّين حميدي*
باحثة ، جامعة الزّيتـــــــونة – تونس
marwahmidi89@gmail.com
تاريخ الارسال 2025/9/5م تاريخ القبول 2025/11/2م

# The Reformist Theory of Sheikh Muhammad al-Khidr Husayn (1873-1958)

Dr. Marwa Bint al-Zayn Hamidi*
Researcher, University of Zaytuna – Tunisia
marwahmidi89@gmail.com

The article discusses the biography of Sheikh Muhammad Al-Khidr Hussein and his role in intellectual and religious reform in the modern era. It begins by providing an overview of the circumstances in which the Islamic world lived, characterized by colonialism, weak education, and the spread of intellectual deviations, which prompted the Sheikh to adopt a comprehensive reform project.

The article reviews the Sheikh's upbringing in a scholarly environment that contributed to the formation of his intellectual personality, and his educational progression until he became one of the leading scholars. From a young age, he engaged in intellectual and national struggle in defense of Islamic identity, relying on scientific reform rather than violent confrontation, focusing on raising awareness and combating ignorance.

The article also highlights the foundations of his reformist theory, which include adherence to the Qur'an and Sunnah, opening the door to ijtihad (independent reasoning), reforming education, correcting misconceptions, combating innovations (bid'ah), and emphasizing major values such as freedom and justice. The Sheikh believes that revival can only be achieved by reviving a sound religious spirit and liberating the Muslim mind from rigidity and blind imitation.

Finally, the article presents the reform methods he adopted, the most important of which are: the scientific method based on evidence, the educational method focusing on moral development of the individual, and the moderate missionary approach based on dialogue and wisdom. It also warns against pitfalls to avoid, such as extremism, fanaticism, and blind admiration of the West.


حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

**الملخـــــــــص :**

**يتناول** المقال ســـيرة الشيخ محمد الخضر حسين ودوره في الإصلاح الفكري والديني في العصر الحديث. يقدّم في البداية لمحة عن الظروف التي عاش فيها العالم الإسلامي، والتي تميّزت بالاستعمار وضعف التعليم وانتشار الانحرافات الفكرية، وهو ما دفع الشيخ إلى تبنّي مشروع إصلاحي شامل.

يستعرض المقال نشأة الشيخ في بيئة علمية ساهمت في تكوين شخصيته الفكرية، وتدرّجه في التعليم حتى أصبح من كبار العلماء. وقد انخرط منذ شبابه في الكفاح الفكري والوطني دفاعًا عن الهوية الإسلامية، واعتمد الإصلاح العلمي بدل المواجهة العنيفة، فركز على نشر الوعي ومحاربة الجهل.

كما يبرز المقال أسس نظريته الإصلاحية، وهي التمسّك بالقرآن والسنّة، فتح باب الاجتهاد، إصلاح التعليم، تصحيح المفاهيم ومحاربة البدع، إضافة إلى التأكيد على القيم الكبرى مثل الحرية والعدالة. ويرى الشيخ أنّ النهضة لا تتحقق إلا بإحياء الروح الدينية السليمة، وتحرير العقل المسلم من الجمود والتقليد.

ثم يعرض المقال مناهج الإصلاح التي اعتمدها، ومن أهمها: المنهج العلمي القائم على الدليل، المنهج التربوي الذي يركز على بناء الفرد أخلاقيًا، والمنهج الدعوي المعتدل الذي يعتمد الحوار والحكمة. كما ينبه إلى محاذير يجب تجنبها، مثل الغلوّ، التعصب، والانبهار الأعمى بالغرب.

**توطئة:**

إنّ الحديث عن الشيخ محمد الخضر حسين، كحديث محفوف بالحذر والدقّة، حيث يتطلّب الإلمام الدقيق بإنتاج هذا العالم المصلح وأهمّ ردهات حياته، ومعاناته في كلّ مراحل كفاحه، فالحذر مخافة إهمال بعض الجزئيّات للمواقف والآراء، والحجج التي كان الشيخ حريصا على بلورتها والدّفاع عنها وإقناع الخصم أو الدّارس أو المستهدف بالخطاب بها وكانت مرتبته الاجتماعيّة وطاقته الفكرية وتأثيره في المجتمع.

الدقّة في اختيار أقواله، وأفعاله وآثاره التي من خلالها يمكن أن يرسم الدارس ملامح صفاته وسماته النضاليّة في جزئيّة من الجزئيّات، ثمّ الدقّة كذلك عند تناول موضوع معيّن للشيخ فيه رأي وقول وموقف.

ولعلّ اختياري للحديث في هذا المقال عن "النظرية الإصلاحيّة للشيخ محمد الخضر حسين يتنزّل في هذا الإطار، حيث تناول الدارسون والباحثون والمؤرّخون

والأكاديميّون شخصيّة الرجل بالدرس والتّمحيص وقد رأيت أن أضيف إليها لبنة تتعلّق بهذا الأمر لمزيد إجلاء بعض خفايا هذه الشخصيّة الفكريّة العملاقة، وما أضافت إلى الفكر الإنساني في مجالات الشريعة والأدب، بدقائق فنونها، الشيء الكثير الذي أصبح علامة مميّزة يعرف بها منهج العلاّمة الزيتوني الأزهري محمد الخضر حسين في نظرته الإصلاحيّة، كيف أقام بناءها ورصّف لبناتها.

وقد اخترت أن أقدّم لمحة موجزة عن تاريخه الحافل والثريّ لأخلص إلى بيان أهمّ عناصر الموضوع المتعلّقة بالنّظرة الإصلاحيّة من حيث الأسس والمناهج والمحاذير في رأي العلاّمة محمد الخضر حسين، وذلك من خلال مباحث ثلاث تتعلّق بالنشأة والكفاح ثمّ نظرية الإصلاح عنده، وحرصه على أن تكون واضحة المعالم خالصة الدلالات، قويّة الحجّة والبرهان، شاملة التناول والإحاطة بقضايا العالم الإسلامي العربي من أجل بلوغ الأفضل، حيث رام التخلّص من الاستعمار ونبذ التخلّف لتحقيق رسالة الإسلام وتقوية شعوبه لبناء الأوطان والتأسيس لحضارة إنسانيّة واعدة.

وتجدر الإشارة إلى ضرورة بيان أهميّة مفهوم الإصلاح عبر التاريخ حيث أنّ الإصلاح في منهج النبوّة غيّر الانقلاب والتغيير، إذ أنّ الإصلاح ينصبّ عادة على تحديد أماكن الإصابة ودراسة أسباب ذلك ومعالجة مواطن الخلل، بالعلم والحكمة والموعظة الحسنة.

والشروح في التكاليف، بحسب الاستطاعة، بعيدا عن العنف و"الإكراه والمواجهة"[1]

**مفهوم الإصلاح:**

لغـــــة: جاء في لسان العرب: أنّ «الإصلاح هو نقيض الفساد[2]، وصلح صلاحا، زال عنه الفساد، وأصلح الشيء، أزال فساده»[3] ، ورسالة المصلح: ما يتوخّاه من وجوه الإصلاح.

اصطلاحا: الإصـــلاح هو تحســـين وضع أو تعديل ما هو خطا أو فساد أو أمرا غير مرضي، وقد تمّ استخدام هذا المصطلح في المفهوم السياسي أواخر القرن الثامن عشر حيث سعى العالم الغربي إلى إصلاح برلماناته.

ويفرق بين الإصلاح والثورة، فهو يهتمّ بمعالجة المشاكل والأخطاء علميّا وفكريّا ويسعى إلى تجويد العمل وتخليصه من الشوائب، في حين الثورة تسعى إلى التغيير الجذري الشامل بغضّ النّظر عن الوسيلة أو النتيجة[4]

ويرى تعريف المصطلح في الفكر الإصلاحي: «بأنّه محاولة تجديد واقع الأمّة الإسلاميّة، والانتقال من وضعها المرضي إلى وضع تكون فيه أفضل حالا من حيث

صحّة العقيدة، وسلامة الخلاف وفعاليّة الأداء»[5] ، وعرّفه محمد البهي بقوله: «هو محاولة ردّ الاعتبار للقيم الدينيّة وتوضيح ما أُثير حولها من شبهة وشكوك ... ومحاولة السير بالمبادئ الإسلاميّة من نقطة الركود التي توقّفت عندها حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر»[6]

أمّا الإصـــــلاح عند الخضر حسين فجعله يسير على منهجين متوازيين الأوّل يقوم على تنقية المفاهيم الإسلاميّة ممّا علق بها، وإزالة الشوائب عنها وتصفيتها من الكدر الذي علق بها نتيجة الجهل وضعف العقيدة، والثّاني: تربية المسلمين على القيم والمفاهيم الأصيلة ليعد بهم إلى الحياة الجديدة استلاما من رفع الإسلام، في عمليّة شاملة للراعي والرعيّة، وفق مناهج الشريعة الإسلاميّة في مفاهيمها الصافية الواضحة. لذلك نلاحظ أنّ الخضر صاغ كلّ وسائل الإصلاح على هذا النسق وضمن هذا التوجّه جاءت الآية الكريمة: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ**﴾[7]. شعارا ومنهجا له.

## المبحث الأوّل ـ مد الخضر حسين: نشأته وتوجّهه إلى الكفاح والإصلاح:

### المطلب الأوّل ـ نشأته والتعريف به:

**التعريف بـــــه:**

هو محمد الخضر حسين بن علي بن عمر الحسني التّونسي، وُلد سنة 1873 ببلدة نفطة في بلاد الجريد التونسي، من أسرة علم وصلاح وتقوى يتّصل نسبه بالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلّم[8]. حفظ القرآن الكريم وأصول الأدب واللغة على والده وخاله محمد بن عزوز (1854هـ/1915م)، ثمّ انتقل إلى العاصمة وهو في سن الثانية عشرة رفقة والده حيث التحق بجامع الزيتونة المعمور لإتمام دراسته، غذ تحصّل على شهادة العالميّة في العلوم الدينيّة والعربية[9]، وأصدر مجلّة "السعادة العظمى" ولكن سرعان ما أغلقتها سلطات الاستعمار الفرنسي، فاشتغل بالقضاء في مدينة بنزرت في الشمال التونسي سنة 1906، ثمّ عاد إلى التعليم مدرّسا للعلوم الشرعيّة والعربيّة بجامع الزيتونة وكذلك بالمدينة الصادقيّة بالعاصمة التونسيّة.

**كفاحـــــــــه:**

مارس الدعوة للكفاح ضدّ الاستعمار فناصر العثمانيين ضدّ الإيطاليين بطرابلس ودعا إلى الجهاد ضدّ الفرنسيين في استعمارهم لتونس، والغرب الغربي، فسافر إلى الجزائر داعيا وقديسا، فحاولت الحكومة الفرنسيّة إغراؤه بضمّه إلى العمل بالمحاكم

الفرنسيّة ولكنّ رفض، فوجّهت له تهمة بثّ روح العداء والتحريض على سلطات الحماية الفرنسيّة، فأصدرت في شأنه حكم الإعدام بتهمة رفض الحكم السياسي للبلاد والتحريض على مقاومته فرنسا، فغادر متخفيّا إلى "تركيا" بحجّة زيارة خاله وكان انطلاقه من مصر عبر طرابلس ثمّ استقرّ به المقام في المرحلة الأولى بدمشق صحبة عائلته، تولّى خلال هذه الفترة مهمّة التدريس ولكن سرعان ما تفطّنت إليه السلطات الاستعماريّة الفرنسيّة الجاثمة على بلاد الشام فغادر سريعا إلى مصر لاجئا سنة 1920 فرارا من الملاحقات المتكرّرة والخطيرة، فاستقرّ مبدئيّا بمصر واستلم رئاسة تحرير مجلّة "نور الإسلام" التي يصدرها الأزهر آنذاك، فعمل على تطويرها ونشرها وفتح دفاتها إلى الإضافات من قبل العلماء، ولكن روح النضال لم تخمد عند الشيخ محد الخضر حسين، فعاود السفر إلى القسطنطينيّة، ثمّ الاستانة حيث التقى وزير الحربية العثماني "أنور باشا"[10] الذي اختاره محرّرا عربيّا بالوزارة، وفي هذا المنصب عرف كثيرا من التيارات السياحيّة والعسكريّة والفكريّة الخفية والظاهرة وعانى بنفسه تهاوي الدولة تحت تأثير عوامل الفساد المستشرى في أوصالها[11]

أوفدته الدولة العثمانيّة قبل استيطانه بها في القاهرة إلى ألمانيا في مهمّة رسميّة حيث قضى هناك تسعة أشهر تعلم خلالها الألمانية ثمّ عاد والتحق مجدّدا بدمشق ولكن الحاكم العام بها أحمد مجال باشا[12] القائد السفّاح التركي الذي كان بحث الممثّل الملخّص لسلطات الاستعمار الفرنسي ببلاد الشّام، قد طالت يده الخضر حسين فاعتقله سنة 1916 ثمّ أفرج عنه بتدخلات كثيرة فعاد إلى الاستانة مجدّدا، فأعيد تكليفه من أنور باشا بمهمّة أخرى رسميّة إلى ألمانيا سنة 1917 حيث التقى هنالك أغلب الحركات الإسلاميّة[13] ، ثمّ عاد مجدّدا فزار دمشق متخفيّا حيث لم يطق صبرا على فراق عائلته حين خاله وعياله وأخيه وكامل الأسرة التي اجتمع أغلبها إلى اليوم، ولكنّه في الأخير استطان بالقاهرة، حيث تفرّغ لتدريس الفقه في كليّة أصول الدين ثمّ أصبح أستاذا متخصّصًا في علوم الشريعة والعربية، فأنشاج ميعّة "الهداية الإسلاميّة" وأصدر مجلّة ناطقة باسمها تحمل نفس الاسم، وقد عي في الأثناء عضوا بالمجمع اللغوي بالقاهرة حيث قدم رسالته القياس في اللغة العربيّة[14] التي نال بها عضويّة هيئة كبار العلماء، كما عمل مدرّسا بالأزهر ومحرّرا بدار الكتب المصريّة لعدّة سنوات بقسمها الأدبي فاشتغل بالبحث والدراسة والتدريس وكتابة المقالات، فنال الجنسيّة المصريّة وكذلك شهادة العالميّة حيث انضمّ رسميّا إلى أسرة علماء الأزهر،

حيث اختير سنة 1952 إماما للمشيخة فأصلح الكثير من مناهج التعليم وطرق التدريس ومضامين البحث التي يحفظ التاريخ إلى الآن بصمات الرجل المصلح عليها.
وقد أسّس قبل هذه المرحلة "جمعيّة تعاون جاليات إفريقيا الشماليّة"، ثمّ "جمعيّة الشبان المسلمين" التي أعان على انطلاقها ورسم تطوّراتها.
ولكن له الأيادي البيضاء على نصّه القضيّة التونسيّة بالداخل والخارج ضمن مكتب المغرب العربي ونجمة شمال إفريقيا التي عيّنت بدعم من حركات التحرير بتونس والجزائر خاصّة.

**وفاتـــــــــه:**

رحل الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله سنة 1958، ودفن بالقاهرة ي المقبرة التيموريّة، بعد حياة حافلة بالعطاء والإنجاز جمع فيها بين النضال الفكري بقلمه، والنضال الدعوي لسانه وقلمه ومواقفه التي جرت له الويلات ولكنّه ظلّ صامدا، لإيمانه العميق برسالته الوطنيّة والشرعيّة والإنسانيّة تاركا رواءه ثروة فكريّة فبصدور المصلحين والعلماء من بعده راسما لهم طريقا سالكة للعمل ومواصلة رسالة الإسلام والحفاظ على الوطن الأكبر العربي والإسلامي والقطري "تونس".

**آثـــــــاره:**

ترك رحمه الله آثارا محفوظة ومطبوعة حتى التي لم تطلها أيدي الدارسين والباحثين والناشرين ولعلّ اهمّ كتبه المطبوعة يزيد عن الثلاثية منها[15]:
أسرار التنزيل، بلاغة القرآن، محمد رسول الله وخاتم النبيين، رسائل الإصلاح، الشريعة الإسلاميّة صالحة للزمان والمكان، محاضرات إسلاميّة، الهداية الإسلاميّة، القاديانية والبهائيّة، السعادة العظمى، دراسات في الشريعة الإسلاميّة، هدى ونور، الرحلات، الدعوة إلى الإصلاح، تراجم الرجال، تونس وجامع الزيتونة، دراسات في العربية وتاريخها، دراسات في اللغة، نقض كتاب من الشعر الجاهلي، نظرات في الإسلام وأصول الحكم، الخيال في الشعر العربي، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم وخواطر الحياة (ديوان شعر)، عدا المقالات والمحاضرات المختلفة والكتابات الصحفيّة والرسائل المقتضبة التي تطهر في حين إلى آخر حيث يتولّى ابن أخيه علي الرضا الحسيني التونسي الإشراف على جمعها وتحقيقها ونشرها من حين إلى آخر ولعلّ أكثر كتب العلاّمة محمد خضر حسين انتشارا وتداولا بين الجامعيين خاصّة هو "رسائل الإصلاح" الذي صدر في ثلاثة أجزاء[16] ، كذلك كتاب الدعوة إلى الإصلاح الذي انتشر بين المشتغلين بالدعوة والإصلاح والخطابة.

ولعلّ هذه الآثار المتنوّعة المضامين، المختلفة الأساليب قد خطّها الشيخ محمد الخضر حين على امتداد فترات حياته الزاخرة بالتجارب الفكريّة، النضاليّة والمواقف السياسيّة والدعويّة في مخالطة العلماء والطلاب والساسة والحكام، الأصدقاء والأعداء، ثمّ ما اكتسبه في تجربة إدارة الأزهر ومسؤوليّة المهام الجسام التي تولاّها موفدا من الدولة العثمانيّة في وساطات رسميّة لقضايا دوليّة ودبلوماسيّة إلى جانب ما عاناه في رحلاته المتنوّع والمتكرّرة.

**المطلب الثانـــــي ـ المقدّمات لشخصيّة الدافعة للإصلاح:**

إنّ دراسة أية شخصيّة فكريّة او أدبيّة أو سياسيّة أو تاريخيّة يتوقّف على المقوّمات الذاتيّة التي انبنت عليها أركان هذه الشخصيّة في حين التكوين والتربية والتعليم والظروف الاجتماعيّة والنفسيّة التي رافقت النشأة وتركت بصماتها في معالم الذات المفكّرة والمصلح، ولعل هذا ما ينطبق بشكل كبير على شخصيّة عالمنا الشيخ محمد الخضر حسين منذ النشأة، يحث تربى في أوساط العلم والتقوى والعائلة التي شبّت على النضال اليومي سواء تعلّق ذلك بتحصيل العم والكدح من أجل تحقيق المعاش والكفاح ضد الاستعمار وما رافقه من ظواهر المرض والتخلّف والجهل وابتزاز الثروات واضطهاد العباد والتضييق على المفكّرين والعلماء والمصلحين(17).

هذا الإطار الذي نشأ فيه الخضر حسين فنتحدّث عن شخصيّته واستدعوه بالمران والصبر والكفاح حيث لم تزده صعوبات الحياة إلاّ إصرار على مواصلة درب الإصلاح والتفرّغ له على مستويات شتّى بعد أن خلقت مواهبه وهذه عقلية بالعلوم الشرعيّة والأدبية والعقليّة واللغويّة فكان شخصيّة متعدّدة الجوانب متداخلة الاختصاصات زادها إيمانه برسالته وعقيدته صلابة ومتانة يمكن أن نشير من خلالها إلى بعض هذه المميّزات التي انبنت عليها شخصيّته الإصلاحيّة، وهي كثيرة نقتصر الحديث فيها على صفاته الذاتيّة دون غيرها.

الصفات الذاتيّة: وهي كثيرة في شخصيّة الشيخ الخضر حسين نذكر منها على سبيل الثمال:

أـ **الرصانة وهدوء الطبع:** خصلتان عرف بهما الشيخ رغم قساوة الحياة ومعاناته من تهجير وترحال وتقلب بين المناصب والخطط ومن مخالطة لكلّ أصناف البشر والفئات الاجتماعيّة والفكر]ة ومطاردة السلطات الاستعماريّة له في كلّ مكان حلّ به، تونس والاستانة والقسطنطينية أو دمشق، ورغم ذلك كان «متمتّعا بهدوء الطبع، وهو امر هام في شخصيّته الإصلاحيّة، التي تقابل في حياتها المتغيّرات

والمواقف، وتشهد حياته الصراعات والنزاعات والهدوء، الطبع أثّر في المواجهة والاستمرار في طريق الإصلاح...»[18] وهذه الصفة لا يمكن أن تكون وليدة الصدفة بقدر ما تكون تراكم عناصر تربويّة تداخلت في بناء شخصيّة الشيخ محمد الخضر حسين منذ بواكر الطفولة وسنوات التعلّم التي تغيّر فيها من رحيق القرآن ومضامينها الربانية في أسرة عرف أغلب أفرادها بالعلم والزهد وقوّة الشكيمة في الحق.

**بين المحنة والمنحة:** قابل الخضر حسين محنة الاستعمار والحكم بالإعدام والمطاردة من بلاد إلى أخرى، إذ كلّما حلّ ببلاد إلاّ وجد في انتظاره قوى الاستعمار وزبانيته ليحاصروه ويلاحقوه ويؤذوه فيشدّ الرحال مجدّدا ليضرب في أرض الله سلاحه القلم واللسان والمنبر، وما يبثّ في أذهان الطلبة والباحثين ،وما يشير به على الساسة والمخلصين الذين آمنوا بعلمه وكفاءته وسلامة توجّهه، ذلك أنّ هذه المحنة قد جابهها بالصبر والتمهّل في غير خضوع واستسلام، بل الجلد والسعي والمثابرة وحسن غدارة المواقف التي وضعته الأقدار أمام فكان المتعامل الجيّد مع الحياة بما فيها من تجليّات واضطرابات[19]

ولم تكــن محنة الشيخ من قبل الحكام وأتباعهم فقط، بل كانت صادرة عمّن لا يريدون للإسلام نجاحا سواء كان ذلك من الغزاة المستعمرين أو من جبابرة الحكام الذين اهتمّوا بالاستعمار، ووجدوا فيه خالتهم للتحكّم في رقاب العباد ودعامته والمصلحين خاصّة للحيلولة دون بلوغ الأهداف النبيلة من جهة وقربّا للاستعمار وقواده من جهة أخرى، وكأنّي بالشيخ الخضر حسين في مسيرة، الابتلاء هذه قد اتّخذ من قصّة سيّدنا يوسف العبرة والموعظة، وهو خير من يدرك أنّ الثبات هو التزام بشرع الله وامتحان لقدرة الإيمان عنده فما جدوى الإيمان إن لم يسمو به إلى درجة الثبات والصمود أمام الشدائد والأزمات، فكان في النهاية أنّ أصحاب المحنة والمتسببين فيها قد ساعدوا على تقوية شخصيّة الخضر حسين والإعلاء من شخصيّة في حيث أرادوا إرهابه وثنيه عن رسالته الإصلاحيّة، فكان العمود بقدر الاضطهاد والابتلاء. هذا الابتلاء الذي لم يفصّل دقائقه، انتهى بالمحنة التي أهلتها له شخصيّته الذاتية والعلميّة فكان تولّيه إقامة مشيخة الأزهر (16 سبتمبر 1952) التي في المعروف والمعهود أن ينالها أحد أبناء الأزهر المصريين الأصليين، ولكن أن يتولاها يشيخ زيتوني تونسي أزهري التدريس، فهذا ما يُعدّ منحة ساقها القدر إليه، حيث شاءت قدرة الله بما توفّر في شخصيّة الشيخ الخضر من صفات، كرفعة همّة وعلوّ شأن، مكانة علميّة سابقة أن يكون أحد العلامات الدالة في العالم الإسلامي قاطبة، وقد

سجّلت مجلّة الأزهر ذلك الحدث "المنحة" بقولها: «في مستهلّ ثورة 1952م، رأت أن يتولّى قيادة الأزهر مناضل عربي من زعماء علماء المسلمين، ومن قادتهم في مناضلة الاستعمار في أقطار عالم العربي، فانعقد الاجتماع على اختيار الشيخ الإمام السيد محمد الخضر حسين، وفي يوم الثلاثاء 26 من ذي الحجّة سنة 1371هـ/ 16 سبتمبر 1952م، خرج من مجلس الوزراء أثناء انعقاده ثلاثة من الوزراء توجّهوا إلى البيت الذي يسكن فيه الشيخ بشارع خيرت، وعرضوا عليه باسم الثورة، مشيخة الجامع الأزهر... »[20]

وما أعظمها من منحة حينما تسعى حكومة جديدة، كحكومة ثورة ناهضة إلى طلب أمر المشيخة إلى الشيخ الخضر حسين: «وعندما يعرض المنصب على العالم، ولا يسعى إليه بنفسه، فهذا دليل عزّة ووقار وإمارة رفعة وفخار، فالمناصب لها أعباؤها الجسام، ومقتضيات الطائلة، والذي تخلص منها بالحق، ويسخّرها لخدمة المسلمين، فإنّ حال هؤلاء كاللبن الذي يخلص من بين فرث ودمٍ، وهذا الخلوص بقدرة الله تعالى، وخلوص بالمنصب في هذا كلّه يحتاج إلى إعانة كبيرة من الله تعالى ورغبة صادقة وإرادة حازمة في السعي بالمنصب لخدمة الإسلام»[21]

**نظـــــرته إلـــى المناصب:**

عُرف الخضر حسين بعلوّ الهمّة وقوّة الشخصيّة والاعتداد بالنفس في غير غرور، والإصرار على المبدأ، صفات تحلّى بها في الوقوف صامدا أمام المحن زمن كفاحه ضدّ الجهل وضد الظلم الاستعمار، بما قاوم به الإغراءات التي لم تغيّر من مواقفه شيئا، فبمثل ما كان ضدّ العبودة والخنوع للآخر، كان أيضا ضدّ عبوديّة إزاء المناصب والمهام التي عادة ما تجعل من ضعاف النفوس فريسة لها، لأنّ مناصب محاذيرها ومخاطرها فهي مسك للكثيرين لإغراءات الدنيا وتنمية حبّ الجاه والسلطة والافتتان بالكراسي، وهذا ما لم يكن ناجحا مع الخضر حسين، حيث لم يفتنه منصب الرئاسة، فلم يكن حريصا على هذا، ولم يسع إليه فقد كان حرصه على الإصلاح والصلاح والتغيير الايجابي أكثر من حرصه على أي شيء آخر، فقد كان دقيقا في عمله حريصا على الإضافة، مقرّ لعزم في كل وقت على الاستقالة إذا ما أيقن عدم الإضافة لعجز أو ضعف ... وقد كان خير في سجل هذا الشيخ عبد الحليم محمود، الذي تولّى إدارة الازهر بنفسه ومن المناصرين للشيخ الخضر حسين بخلوص مبادئه وهمّته وقوّة شخصيّته العلميّة والافتتانية، حيث قال: «ولأنّه لم يكن له شهوات المنصب من حظّ، فإنّه كان دائما يحتفظ باستقالته في حسبه...»[22] ، وقد أصبحت سمة

من سمات الشيخ حيث «يذكر أصدقاؤه أنّه استقال من منصبه الكبير عدّة مرّات وأصرّ في آخر مرّة على ترك المنصب بسبب توحيد القضاء في صمر، لأنّه كان من رأيه أن يندمج القضاء الأهلي في القضاء الشرعي، وليس العكس، لأنّ الشريعة الإسلاميّة ينبغي أن تكون هي المصدر الأساسي للقوانين...»[23]

كما نجد قولا آخر غير جدير بالاهتمام من قبل الذين يؤلمهم تولّي زيتوني مشيخة الأزهر ... «ويذكر آخرون انّه استقال بسبب ضعف صحّته وأعباء كهولته...»[24]

ومهما يكن الأمر فغنّ الشيخ الخضر حسين من طينة الذين لا تغيّرهم المناصب ولا تهزّهم الأهواء لقوّة زهده وتعفّفه، حيث لم يسع من خلال منصبه هذا إلى ربح أو أية إفادة مالية، وهو ما جعله يحافظ على أخلاقه الأصليّة وشخصيّته الفريدة، حيث قال فيه عبد الحليم محمود: «وحينما تولّى مشيخة الأزهر لم يغيّر شيئا من عاداته، كان على استعداد كامل ودائم لأن يعيش على كسرة من الخبز، وكوب من اللبن...»[25] ، وعلّقت مجلّة الأزهر على هذه الصفات في أكثر من عدد : «مهما يكن من أمرٍ فإنّه، رحمه الله، لم يكن أسيرا للمنصب يوما من الأيام، فقد كانت عفّته وعفافه مضرب الأمثال ... وكثيرا ما قال: يكفيني كوب لبن وكسرة خبز، ... وعلى الدنيا بعدها العفاء...»[26] ، وقد بيّن من خلال هذا أنّ الشـــيخ قد ضرب المثل في العفة الناتجة عن التقوى والورع حيث قبل المنصب أداة للتغيير والإصلاح لا مقصدا للثراء والرياسة وفق ما يراه بعضهم ويسعى إليه بكلّ الطرق، وهذا ما ساعده على النجاح والتميّز في الإضافة وحسن الأداء وتحقيق مقتصد الإصلاح وفق ما يراه الشيخ وما يتماهى مع روح الشريعة وتولى الخطط وإدارة شؤون الناس في مجال دقيق وهو مجال العلم ولعلّ هذه الصفات الذاتيّة قد تكتمل بما له من مكانة علميّة أهّلته لأن يعتلي منصب رئاسة الأزهر. كما أنّ هذه لصفات وما تضمّنته من ممّات أخرى ظهرت آثارها في نظرته الإصلاحيّة التي أقامها على أسس متينة صامدة وثابتة.

## المبحث الثاني ـ أسس النظريّة الإصلاحيّة عند الشيخ محمد الخضر حسين:

إنّ المدقّق في آثار الشيخ الخضر حسين على كثرتها يجد أنّ أسس نظريّتة الإصلاحيّة مبثوثة في ثنايا أفكاره وآرائه ومواقفه، حينا يعسر جمعها لتنوّعها وتداخلها ولكن طبيعة الموضوع تحتّم الاقتصار على عنصرين اثنين لا يعدمان بقيّة الأسس وإنّما يتقدّمان لأهميّتهما وهما العلم والقضاء.

**المطلب الأوّل: أهميّة العلم في بناء النظريّة الإصلاحيّة:**

بنى الخضر حسين نظريّة الإصلاح على أهمّ دعامة تقوم عل العلم استنادا إلى الشريعة الإسلاميّة حتى يعتبر أنّ العلم هو أوّل رابط في السّماء والأرض عند هبوط الوحي على رسول الله ﷺ في حادثة ارهاصات الوحي بغار حراء، والحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وجبريل عليه السّلام: اقرأ ... ما أنا بقارئ حيث توّج بقوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[27]. حيث نصّت الآيات على أهميّة العلم في حياة الإنسان وصيرورة الكون، العلم الشامل الذي ينطلق في علوم الشريعة بالتّوحيد والإيمان والإقرار بالربوبيّة والخلق وأصل الخلقة، ومكوّنات الإنسان الأولى، ثمّ التسليم بصفاته تعالى، ثمّ مآلات العلم عبر الزمان وما يفتحه من آفاق أمام الإنسان على مستوى حياته وتنظيم أساليب عيشه، ويعتبر الخضر حسين أنّ العلم هو درجة فضلى يصلها الإنسان بما فتح الله عليه من قلب وعقل للتدبّر وتحقيق الفوز، ولم يقض حقّ العلم، بل لم يدر ما شرف العلم ذلك الذي يطلبه لينال به رزقا أو ينافس فيه قرينا، حتى إذا أدرك وظيفة أو آنس في نفسه الفوز على القرين أمسك عنانة ثانية، وتنحى عن الطلب جانبان، تبرز في مظاهر عزّتها، بهم أولئك الذين يقبلون على العلم بجدّ وثبات، ولا ينقطعون عنه إلاّ أنّ ينقطعوا عن الحياة»[28]

فالعلم إذن مكرمة من الله للإنسان فردا وجماعة، إذا أدرك الإنسان كيف يحسن أداءها واستثمارها، فمتى أدركت الشعوب أهميّة العلم إلاّ وغّلت بأوطان وارتقت عقولها ورقّت أذواقها وارتبط صلاح أموره بما تأتيه في علم وتبذل الغالي والنفيس لنشره وإبلاغه وإنارة العقول به: «فلا الأمّة في صلاح أعماله وصلاح أعماله في صحّة علومه، وصحّة علومه أن يكون رجاله أمناء فيما يرون أو يصفون، فمن تحدّث في العلم بغير أمانة، فقد مسّ العلم بقرحة، ووضع في سبيل فلاح الأمّة مجرّد عثرة...»[29]

ويؤكّد الخضر حسين على الأمانة في أداء العلم، باعتباره صمام الأمن في ثقل الحقيقة وإجلاء الجهل والغبن على المجتمع، وتعويد الناس على الوضوح والحقيقة ناصحة دون إخفاء وتزوير حيث يقول: «فالأمانة زينة العلم وروحه الذي يجعله زاكي الثّمر، لذلك المطعم ... وإذا قلبت النّظر في تراجم رجال العلم، رأيت بين العالم الأمين وقرينه غير الأمين بونا شاسعا، ترى الأوّل في مكانة محفوظة بالوقار، وانتفاع النّاس

منه في ازدياد، وترى الثاني في منزلة صاغرة، ونفوس طلاّب العلم منصرفة عن الأخذ عنه أو متباطئة»[30]

وللأمانة في رأي الخضر دلائل أساسيّة يوردها في قوله: «إنّ أمانة العلم تدعوه إلى أن يقول لا أدري، وهذا دلالة رسوخه في الأمانة، فلا تزخـــره العواصف قيد شعرة ... ومن مقتضى الأمانة أن تصدغ بما استبان ذلك أنّه الحقّ، ولا يمنعك في الجهر به أن تنسب إلى سوء النّظر فيما رأيته سالفا، فما أنت أولا بشر ... والأمانة هي التي تحمل كبار أهل العلم على أن يعلنوا في الناس رجوعهم عن كثير من آراء علميّة أو اجتهادات دينيّة تبيّنوا انّهم لم يقولوا فيها قولا سديدا ... وقد تخون الرجل ذاكرته أو تأخذه غفلة فيقع لسانه في خطأ، فيُنبه، أو ينتبه من نفسه إلى هفوته، فإنّ كان على ح عظيم من الأمانة بادر إلى الإصلاح، إصلاح خطئه بنفسه غير مستنكف في الإعتراف بما أخذه من ذهول قلب أو غلط لسان...»[31] ، ومن مقتضيات الأمانة العلميّة أيضا هو إقامة الحق على النفس من خلال اعتراف التقوى الأبيّة الوقوع في الخطأ، ومتى حصل هذا من الأفراد سلمت حياة المجموعة وأصبح العلم هو الإطار العام الذي تحتكم إليه الأمّة، فهو أساسي في نهضة الشعوب وعزّة الأوطان ونخوة الأفراد... «وفي الأمانة الرجوع إلى الحق وهو كمال لا تحرص عليه إلاّ التقوى التي ذُلّلت لها سبيل المكارم تذليلا... ومن الأمانة أن تنتقد الآراء، ولا تغمض فيما تراه باطلا، وإن كان بينك وبين صاحبها صلة الصداقة والقرابة ... ومن أمانة العالم أن لا يفتي أو يقضي بما يراه باطلا، وحرام عليه أن يفتي أو يقضي برأي غيره، وهو لا يتردّد في بطلانه، ويبقى النّظر في المسائل التي تعود إلى الاجتهاد ولا يتعدّى حكم مراتب الظنون»[32]

وتقتضي الأمانة في العلم الإخلاص في أدائه سواء للعالم والمتعلّم أو المشرف ذلك أنّ الإخلاص في العلم هو أداء العمل- العلم لله والوطن بغاية تحقيق رسالة الإسلام في أفضل تجليّاته الراقية «ومدار الإخلاص على أن يكون الباعث على العمل أوّلا امتثال أمر الله ولا حرج على من يطمح بعد هذا إلى شيء آخر، بنعيم الآخرة، أو النجاة من أليم عذابها، بل لا يذهب بالإخلاص بعد ابتغاء وجه الله، أن يخطر في باله أنّ للعمل الصالح آثارا في هذه الحياة كطمأنينة النفس، وأمنها من المخاوف، وصيانتها من مواقف الهون، إلى غير هذا من الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد به إقبال النفوس على الطاعات قوّة على قوّة...»[33]

وللإخلاص وجوه متعدّدة تلحق بكلّ الأعمال والاختصاصات فتمنعها الجديّة والمسؤوليّة والمصداقيّة في كلّ مجالات الحياة من عمل وعلم وتجارة وكلّ ما يشتغل به البشر على وجه البرّ «والإخلاص يرفع من شأن الأعمال حتى يكون مراقي الفلاح وهو الذي يحمل الإنسان على عمل الخير، فيتجنّب الربا ويعرض عن أقوال الرياء وسلوك التّظاهر، فإذا غاب الإخلاص حلّ محلّه الرياء والأهواء...»[34]

إنّ من مراقي العلم إصلاح التعليم وجعله مستجيبا لقضايا المجتمع الرّوحيّة والعقليّة والماديّة العمليّة، فالخضر حسين يقول بأنّ العلم شامل لعلمه الديني والدنيوي وروابط بين الواقع والطموح، وحياة الإنسان الذاتيّة في عقيدته وإيمانه، ثمّ في تعلّمه وتجارته، فليس من العلم ولا من الدين أن نقصّر حياة الإنسان على العلوم الشرعيّة فحسب، فلابدّ في من تعليم تنطلق فيه في تربية روحيّة تعلّم الناشئة دينه فتربّيه على محبّة الله ورسوله والإيمان بهما، تربّي الناشئة أيضا على المروءة والكياسة والفطنة وحسن الآداب، فالتربية على العلم تخرج جيلا قادرا على حمل الأمانة وأداء الرّسالة، «ذلك لأنّنا نريد أن نعدّ للمستقبل ناشئة تستقيم على صورة الله، وتخرج لحجم الحياة بكياسة تبصر بها مواقع الشرّ والخير، فتسعى إلى أن يكون البشر بعيدا منها والخير طوع إيديها، وعلى قدر ما يكون الجهاد قدمه، ويرقى في السّماء ذكره، والذكر الذي تحوّطه التقوى ويحرصه الدهاء لا يخفت صوته إن شاء الله...»[35] ، علما وأنّ "الدهاء" في نظر الخضر هو «ومتى كان الدهاء –أعني جودة النّظر في سياسة الأمور وتقدير وسائل الخير- عائدا إلى المعيّة فهي في أصلها موهبة الحياة ...»[36] ، وبذلك رفع اللبس اللغوي حول اللفظة "الدهاء" وما قد يُفهم منها اليوم من مفاهيم قد لا تستقيم.

وقد انتقد الخضر التعليم الديني في عصره خاصّة في المدارس الحكوميّة، حيث أثّر على أهميّة الأخلاق ودوره في رقيّ وتهذيب المجتمع، وبيّن أنّ أسباب الضعف والانحراف إنّما ناتج عن غياب العلم الأساسي في حياة الطفل الصغير الذي لم تصقل عقيدته، ولم يهذّب ذوقه، ممّا جعله عرضة للانحراف وقد بيّن أنّ أمّهات الأسباب ثلاثة:

ـ المدارس التي فتحها الأجانب في الأوطان الإسلاميّة باسم العلم، ولا يعرف فحواها ولا مضامين برامجها.

ـ تهاون بعض الأولياء بولاية الأبناء وعدم تحضيرهم فيلقون بهم في المجتمع دون رعاية، أو يرسلونهم إلى الخارج للتعلّم دون متابعة وشدّ أزار أو تعهّد وخاصّة إذا لم

يكن تحضيرهم بالعلم الضروري في أوطان الأمّ قد سبق السّفر، وهو ما ينعكس على تشويه العقائد وفساد مقوّمات الإيمان.

ـ أنّ كثيرا من الحكومات الإسلاميّة قد ضعف لديها وازع الدين باسم المدينة والتحضّر والحريّة...

وكأنّي بالإمام الخضر يعيش بيننا اليوم لتوفّر هذه العناصر المهلكة الثلاثة، والحلّ فيها واضح وجليّ «إنّ الأمم التي يقوم تعليمها على روح دينيّة قويّة تبلغ في العظمة ما لا تبلغه أمّة تساويها في غير هذه الرفع من وسائل الحياة»[37]. كما يدقّق أيضا في حال من شبّوا ممّن تعلّموا وتلقّوا العلم الديني، حيث مسّى موقفه الطبيعي والواضح في قوله: «وإذا رأينا في بعض المتلقّين لعلوم الدين عوجا، فذلك سنّة الله في الخليقة أن لا تخلص الطوائف الكثيرة من أفراد يشربون بكأس، فيظهرون في زيّها ثمّ هم شنود عنها»[38].

ويحمّل الشيخ خضر علماء الأمّة مسؤوليّة الإصلاح باعتبارهم حملة مشاعل النور في الليالي الراجية، فإليهم مهمّة إنارة عقول الناشئة وترتيب عمل الفضيلة، وإرشاد العامة إلى سواء السبيل، ونصح الحكّام والسّاسة ليسلكوا طريق العدل والهدى «أن يزداد الذين درسوا علوم الشريعة عناية بالقيام على ما استحفظوا من هداية، فلا يذروا شيئا يشعرون بأنّه موكول إلى أمانتهم إلاّ أحسنوا أداءه...»[39]. ويحدّد الأمر بأكثر دقّة في قوله «ينظر أهل العلم في حال النّاس من جهة ما يتقرّبون به إلى الخالق، ويزينون أعمالهم ليعيزوا البدعة من السنّة ويرشدوهم إلى أن يعملا عملا صالحا ... وينظرون في أحوال الناس من جهة ما يجري بينهم في المعاملات فيصلحون ما كان فاسدا، ويصلون ما كان متقطّعا ... وإثارة دواعيهم إلى يعالجوا العسر حتى ينقلب بفضل تدبيرهم يسرا»[40].

ومن وظائف العلماء صيانة الإسلام من كلّ تشويه والردّ على الطاعنين فيه «ينظر أهل الهن بعين الاحتراس إلى كلّ من يدعو إلى مذهب باسم الدين، ويتّخذون الوسائل إلى الاطّلاع على حقيقة قصده... إذ من أسباب وهن حبل الإسلام، وتقطّع أوصاله، مذاهب يبتدعها ما الأصدة يمكرون، او جهّال لا يفقهون...»[41].

وفي نظـــره واقعيّة يورد الخضر وقائع من المجتمع وهو يدرك أنّ هناك فئات لا يروق لها الإصلاح، وإنّما يدعها العيش على هامش المجتمع وإفساد ما يؤسّس له العلماء والمصلحون، وذلك باتّباع الهوى في أنسفهم أو ممّن هو قادر على التأثير عليهم في الأمم الأخرى أو من بني جلدتهم «نحن نعلم أنّ في كلّ عسر فئة يفتحون

صدورهم لقبول دعوة توافق أهوائهم أو تأتيهم من طلاء يوافق ويلائم أذواقهم، ولكن نهض العلماء بعزم وحكمة، من لم يسحق آراء هذه الفئة سحقا، فإنّه يكشف عما فيها من سوء، فلا يسكن إليها إلاّ من هم إلى الحيوان أقرب منهم إلى الإنسان...»[42].

وعليه فإنّ واجب العلماء يتعدّى دورهم الظاهر في الإصلاح إلى الدور الدقيق في أقلّ وأصغر الأشياء وأشفّ مكوّنات المجتمع إذ «يرقب أهل العلم كلّ حركة تقوم بها جماعة من الأمّة، ينقذون بالنّظر الخالص، ويصدعون فيها بآرائهم مدعومة بالأدلّة المقنعة ولا تعدّ هذه المراقبة وهذا النقد خارجين عن خطّة العالم الإسلامي، بل هما واجبان في عنقه كواجب التعليم والإفتاء...»[43]. ويذكر لنا الخضر أمثلة من التاريخ يضيق المقام لذكرها، ويوجّه رأيه إلى العلماء لينظر في حال المجتمع في ظواهره السلبيّة التي تكثر في الزّمان والمكان حيث يقول: «ينظر أهل العلم إلى ما عرف فيه بعض شيئا من التشبّه بالمخالفين، وتقليدهم في عادات لا تغني في الرقيّ شيئا، وقد يرى بعضهم الخطاط كثير من أبنائنا في هذا التشبّه والتقليد، فيعدّه قضاءً مبرما، ولملكه خاطر اليأس، حتى ينتكث من التعرَّ للشؤون العامّة ومعالجتها، ولكن الذي يعرف علّة هذا التسرّع، ويكف قد قرأ التاريخ ليعتبر، يرى الأمر أهون من أن يصل بالنّفوس إلى التردّد في نجاح الدعوة، بلة الناس من نجاحها»[44]

**المطلب الثّانـــــي ــ أهميّة القضاء في دعم نظريّة الإصلاح:**

إذا كان العلم هو الإطار الشامل والمقوّم الأصلي لكلّ عمل إصلاحي يؤمن بالفكر والعقل، ذلك أنّ العلم لا يترك ميدانا إلاّ ويداخله تصويبا وإصلاحا، يقوم على عدم استثناء أي عنصر من المجتمع، فحتّى الحضارة الإنسانيّة عامة والإسلاميّة خاصّة إنّما قامت على العمل الشامل للإنسان وواقعه ومجتمعه، وكلّ فئاته، فإنّ القضاء هو ميزان المحافظة على الحقوق وأداء الأمانات ومنع الحوار بين الأفراد والمجتمعات وبين المجتمعات وحكّامها، وقد أكّد الخضر حسين على الأمر ضمن مقال عنونه "القضاء العادل في الإسلام"[45] ، بيّن فيه أنّ الإصلاح بنى القضاء وعلى أسس محكمة ونظم صالحة وأخرج للناس قضاة سلكوا إلى العدل في الحكم، والحزم في التنفيذ، مسكا هو واقع ما يستطيع البشر بلوغه، ويدعو الدول الإسلاميّة ل أن تربّي أجيالا على العلم والجلالة والصّدق والنّزاهة، ما يمكّن أن تحفظ روح العدل الذي أعلى من شأنه القرآن ودعا الأنبياء والرسل تباعا إلى إقامته وقد تبلور ذلك من خلال القرآن الكريم وهو يخاطب المسلمين المخيض في القضاء في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم: «وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنّ الله يحبّ المقسطين»[46]

وقد جاء في السنة النبويّة قوله ﷺ: «**إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»[47]وفي الحديث إشارة على شدّة قرب المقسطين من الله ربّ العالمين وفوزهم برضوانه، وقد دعوا الله سبحانه وتعالى متبعين الهوى، وذلك من خلال خطابه لداود عليه السّلام وإخباره بما ينتظر هؤلاء من عقاب إلهي، قال تعالى: ﴿**يا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾[48] ذلك أنّ القضاء العادل هو دعامة لحياة سعيدة متوازنة قومها الوضوح والعدل وأداء الحقوق لأصحابها دون حيف أو نقصان، وقد جاء في الحديث الشريف أيضا قوله ﷺ: «**الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: اثْنَانِ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ: رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَلَمْ يَقْضِ بِهِ، وَجَارَ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ، فَقَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ، فَهُوَ فِي النَّارِ**»[49]. واعتبر الإسلام أنّ العدل في القضاء أساس متين نتيجة الفوز في الدارين ولنا في قضاء رسول الله ﷺ خير مثال في صيانة الحقوق، والتسوية بين الخصوم ذلك أنّه ﷺ أراد إقامة الحدّ على امرأة مخزوميّة قد سرقت، فحاول بعض الصحابة التدخّل لديه ﷺ ليسقط غر الحدّ، فردّ عليه الصلاة والسّلام بقوله: «**أتشفع في حد من حدود الله؟، ثم قام فاختطب ثم قال :إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يداها...**»[50]

وقد حرص الإسلام أن يصبح العدل في القضاء صرعة ومنهاجا وأسّا من أسس بناء المجتمع السّليم وسلوكا في حياة القضاة وهو ما درج عليه الصحابة الأوائل، فسجّل عمر أثر الخطاب في رسالته التي بعثها إلى موسى الأشعري منهم القاضي وسلوكه وخطّة عمله، بقوله: «آسِ (سوِّ بين الناس) بين الناس في مجلسك، وفي وجهك، وفي قضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس وضيع (ضعيف) في عدلك»[51]

فبمثل هذه الهمم العالية، والسير العطرة، أثر الصحابة ومن الأهم في حياة المجتمع الإسلامي وشاع العدل بين الناس فبنوا حضارة بقيت سمات واضحة في سجل الإنسانيّة، لذلك كان الشيخ حسين شديد التمسّك بأنّ القضاء العادل هو الأس الثّاني في إصلاح المجتمع الإسلامي بعد توفّر أسّ العلم والمعرف وما ينجرّ عنها في تربية وتعليم يشمل كلّ البشر والأجيال وبمضامين ماسكي الشريعة، وتأخذ بأسباب الرقيّ فيما أطلق عليه العلوم العمليّة في مختلف الاختصاصات ودقائق المعارف.

وقد أطنب الخضر في ذلك نماذج من القضاء العادل الناجز عبر تاريخ المسلمين، من ذلك قوله: «في سيرة أبي عبد الله محمد بن عيسى أحد قضاة قرطبة[52] (لم نعثر على تاريخ موله) أنّه التزم الصرامة في تنفيذ الحقوق، والحزامة في إقامة الحدود، والكشف عن البيان في البرّ والصدع بالحقّ في الجهر ، ولم يهب ذا حرمة، ولا داهن ذا مرتبة، ولا أغض لأحد من أرباب السلطان وأهله، حتى تحموا حدّة جانبه، فلم يجسر أحد منهم عليه...»[53]

يتحدّث الخضـــر عن القضاء حديث العرف الجنيد المجرب، حيث هنّ قاضيا ببنزرت في البلاد التونسيّة في بدايات كفاحه العلمي والمهني والسياسي قبل أن يشدّ الرحال إلى خارج الوطن. ويشير في رسالته حول القضاء إلى ضرورة استقلاليّة القضاء عن سواهم من المهام وغيرهم من أصحاب النفوذ: «فالإسلام يلقن القاضي أنّه مستقلّ، ليس لأحد عليه سبيل، وقد قصّ علينا التاريخ أنّ كثيرا من القضاء العادلين كانوا لا يتباطؤون أن يحكموا على لرئيس الذي أجلسهم على منصّة القضاء حكمتهم على أقصر النّاس يدا وأدناهم منزلة»[54]. وفي الآن نفسه يشير الخضر إلى صعوبات الجلوس إلى القضاء وما يعانيه القاضي العادل من عنت ومقاومة في القيام بمهامه «ولصعوبة القضاء من ناحية التثبت في الحقّ أوّلا، والقدرة على تنفيذه ثانيا أبى كثير من العلماء الأتقياء أن يقبلوا ولايته، ورفضوها بتقديم، يخشون أن يعترضهم في التنفيذ ما لا طاقة لهم بدفعه، أو يخشون الزلل عنه الله في بعض النّوازل، وتعرّف أحكامه بما أنّ إدراج الوقائع الجزئيّ تحت الأصول الكليّة عسير المدخل، لكثرة ما يحوم حوله من الاشتباه، فكثير من الجزئيّات تحتوي أصنافا مختلفة، وكلّ وصف ينزع إلى اصل، وقد يكون في الأصل الذي هو أمس بالواقعة خفاء لا ينكشف إلاّ أن يردّد القاضي المعني نظره، ويجهد في استكشافه وريته...»[55]

وبيّن الخضر من منطلق التجربة أنّ حرص الإسلام على توفير القضاء العادل بتعبير القاضي الكفء الجسور الذين لا يخشى في الله لومة لائم، وما هو ما يمكّن الحاكم أن يجر عند الضرورة القاضي الجدير بالمنصب حفاظا على العدالة والقسطاس في حياة المجتمع... وقد ذكر الخضر قصّة عيسى بن مسكين حينما امتنع عن القضاء وكيف ألزمه الحاكم فاستجاب مكرها «ومن العلماء من يأبى قبولها –خطة القضاء- يكون الأمير من يقدر قدره ويراه أقدار أهل العلم على اقيام بها، فيهدّده بالعقاب، أو يسومه العذاب، ليكرهه على قبولها، ومنهم من يقبلها بعد التهديد البالغ، مثل عيسى بن مسكين (14هـ-295هـ/829م-907م) أحد فقهاء القيروان، عرف الأمير إبراهيم نجا حمد بن

الأغلبمن زهده في المناصب أنّه يأبى ولاية القضاء، فأحصره، وقال له ما تقول في رجل جمع خلال الخير، أردت أن أوليه القضاء، وألمّ به شعث هذه الأمّة فامتنع؟ قال له عيسى بن مسكين يلزمه أن يليَن قال: تمنّع، قال تجبره على ذلك بجلد، قال قم فأنت هو، قال ما أنا بالذي وصفت، وتمنّع حتى اخذوا بجامع ثيابه، وقرّبوا السيف من نحره، فتقدّم لها بعد أمرٍ خطيرٍ»[56]

عنّ تأكيد الخضر على أنّ العلم والقضاء لازمان لا ينفكّ عنهما الأمر في إصلاح المجتمع متى أراد لنفسه الرفعة والتقدّم، لا يعدم وجود أس أخرى، داعمة لهذين الأسّين ولكن ضرورة الالتزام بالموضوع وحدوده، جعلنا نقصّر الحديث عن هذين فقط، مع التأكيد على عدة جوانب أخرى تعزّز ما ذكر المساواة في المجال الاجتماعي ومجال كثر سواء هي معنويا كالتراحم والتوادد وماديّا كالكفالة والإنفاق بكلّ وجوه قطعا لظاهرة الحيف الاجتماعي، ثمّ العدالة بدورها الشامل في مجال الحكم والسياسة والشورى في إدارة شؤون الناس وكأسلوب يرى عليه أمر إيصال الحقوق إلى أصحابها وتولية الأصلح في كلّ المجالات.

ومهما يكن من أمر هذه الأسس المتعدّدة والمتنوّعة في إقامة الإصلاح فلابدّ من مفاهيم عمليّة تؤدّي فيها أعمال الإصلاح والنهوض بأعباء المجتمع.

## المبحث الثالث ـ مناهج النظريّة الإصلاحيّة ومحاذيرها:

أقام الخضر حسين نظريّته الإصلاحيّة على أساس العلم والقضاء بمفهوميها الشامل لكلّ مكوّنات هذين الاختصاصين ومجالهما به علاقة في بناء المجتمع المسلم منطلقا من أرضيّة تجمع إسلامي يؤمن بالدين منهجا وعقيدةً ويحتاج إلى تجويد أساليب حكمه وإدارة شؤونه ولكنّه في الآن نفسه لم يغفل عن الإشارة إلى المناهج التي توخّاها لإرساء هذه الأرض، حيث جعل من صدق العزيمة وقوّة الإرادة[57] منهجا كما أشار إلى المثبطات والمحاذير التي يمكن أن تعرقل سير النظريّة الإصلاحيّة وإقامة الجمع الأفضل.

### المطلب الأوّل ـ مناهج النظـــريّة الإصلاحيّـــــة:

جعل الخضر حسين من مناهج الإصلاح وسيلة لبيان الطريقة المحكمة توضيحها من كلّ مصلح يروم تغيير واقع المجتمع نحو الأفضل انطلاقا من الشريعة الإسلاميّة في روحها المبثوثة نحو تحقيق سعادة الإنسان، وبالرغم من أنّ هذه المفاهيم تختلف من مصلح إلى آخر ومن زمن إلى ثانٍ ومن موضوع إلى موضوع، فإنّ الخضر

حسين يرى أنّه لا بدّ من حضور ثلاث مواضيع وأساسيّات في فكر كلّ مصلح ليسير على المزاج السليم:

**الأسّ الأوّل:** توفّر إرادة العمل والصبر للتغيّر نحو الأفضل وهو ما أطلق عليه صدق العزيمة وقوّة الإرادة[58]. ويرى أنّها ممثّلة ومبلورة من خلال وثوق المصلح بنفســـــه في غير غرور، بعد أن تتوفّر فيه كلّ شروط المسؤوليّة والقدرة على الإصلاح ثمّ معرفة مضامين ما هو مقدم على إصلاحه وطرح الحلول البديلة لما يمكن أن نطلق عليه التغيير الإيجابي الذي يأخذ المجتمع في حال الضعف والهوان والتبعيّة إلى حال استرجاع همّته والإيمان بمقوّماته ووعيه بضرورة التحوّل نحو الأفضل من خلال العمل الجادّ والهادف والمنطق من رفع الشريعة في المام بقضايا العصر دون انغلاق وتفتّح لا صدور له، وقد عبّر عن ذلك الخضر حسين بقوله: «يخطر في النفس أمر، فتثق بانّه حق أو نافع، فتحرص على حصوله، فإذا أضافت إلى هذا الحرص التطرّفي وسيلة بلوغها إياه، ولدا لها أنّه في حدود استطاعتها، فسرعان ما تقبل عليه، ويبذل سعيها للوصول، وذلك ما نسمّيه بالعزم والإرادة»[59].

وفــرّد هذه الصفة "المنهج" إنّما تنشأ بالتجارب والمران والإصرار على العمل السليم لنافع وفي ثنايا التاريخ ما يؤكّد انّ هذه الإرادة إنّما ثابتة ومرنة تتحلّى بالإصرار والمداومة من أجل تغيير مواقف الآخرين من الأسوأ إلى الأفضل ومن الشدّة اللين ومن اللامبالاة إلى الاهتمام «وتنشا قوة الإرادة من درس التاريخ، فالذي يخطر في باله أمر قرأ في سيرة شخص أنّه كان قد همّ بمثله، وعمل لحصوله، فبحجم عمله وصلحت عاقبته، شأنه أن يعزم على ذلك الخاطر، ويجعله بعد العزم عملا نافذا...»[60] كما نشأة قوة الإرادة والرغبة في الإصلاح من أدلّة خاصّة تجعل المصلح على يقين أنّ قوى الإرادة صادق العزم مصمّم على القتال اهل الردّة ما نعي الزهاد لأنّه كان عالما بأنّه على حق في طلبه وفعله عند امتناعهم كما كان على ثقة من أنّه سينتصر ولو بفئة قليلة ضدّ مجموعة كثيرة، ولو لم يفعل أبو بكر ذلك لاقتدت أغلب قبائل العرب بالمرتدين وانفصمت على الدولة الإسلاميّة، ولم يستقم أمر تلك الفتوح التي توالت وكانت عاقبتها إظهار دين الحق على سائر الأديان[61]

ولعلّ قوّة الإرادة تكمن أيضا عند الشخصيّة المتعفّفة المتخلّقة «وممّا يساعد الرجل على صدق العزيمة خلق التعفّف، وشرف الهمّة، فلا تجدنّ أنزه القوم نفسا، وأبعدهم عن الطمع وجهة أشدّهم عزما على أن يقول حقّا، أو يعمل صالحا، وإن لم يرض عن قوله الحق أو عمله الصالح ذو مال أو جاه...»[62]

ولعلّ الرجال يتفاوتون في لصلابة وقوّة الإرادة رغم صدق العزيمة ومضاء الرأي ولذلك فهم يتفاوتون فيما يحقّقون من نتائج وما يغوصون من فضائلن فكلّما اجتمعت الإرادة الصلب ة وقوّة العزيمة وحس الخلق وصفاء السيرة وحسن التوكّل كانت النتائج أفضل وبلوغ الرشد والنجاح أمكن وفق قوله تعالى: ﴿**فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحبّ المتوكّلين**﴾[63]

**الأسّ الثانـــــــي:** في مناهج تحقيق النظريّة الإصلاحيّة وما سمّاه الخضر حسين: الغيرة على الحقائق والمصالح[64] ، ومفاد ذلك أنّ الإنسان المصلح بما توفّر فيه من شروط وقدرات هائلة تمكّنه من النجاح فإنّه لن يكون كذلك ما لم يكن مسكونا بروح الغيرة على الحقّ فيعل على تبليغه وعلى المصلحة بأنّها أساسيّة وضروريّة فيعمل على إنجازها وإنجاحها وتحقيقها «فالغيرة على الحقّ من مقتضيات الإيمان به، تقوى بقوّته، وتضعف بضعفه وتفقد حيث لا يكون القلب مؤمنا»[65].ومن الغيرة على الحق أن يحرص المصلح على مقاومة كلّ الأباطيل المتعلّقة بذات الموضوع او بذات المنهج والأسلوب لأنّه بذلك يدفع عن الإصلاح خسيسة الأعداء وكيدعهم الذي لا ينتهي مهما تبدّل الزمان وتغيّر المكان، على أن يكون المصلح متحليّا بالأخلاق الفاضلة وسعة البال ونقاء السيرة، فلا يجعل في نفسه عرضة للنقد قد يُساق إليه من غضب وانفعال يؤدّي إلى ردود فعل لا تليق به أو بمضمون الدعوة التي يريد بها إصلاحا: «فمن الغيرة معلى الحق أن تقاوم المبطلين أو المفسدين قاطعا النّظر عن كلّ صلة أو عاطفة، ومن التسامح المقبول والمطلوب، أن تدفعهم بالتي هي أحسن حتى كأنك لا تعريف شيئا من شؤونهم غير ما تصديت لمناقشتهم فيه، وذلك ما يتبيّن به الناس انّك لا تقصد إلاّ أن تكفّ بأسهم وتحمي النفوس من وباء دعايتهم...»[66]

كم أنّ المصلح لابدّ أن يكون عارفا بدرجات الحقائق المتنوّعة، فحقيقة الإيمان بوجود الله، وأركان الإسلام وما يتفرّع عنها ليس في نفس درجة الحقائق المتعلّقة بحياة الناس في معاشهم وتعاملهم «تتفاضل الحقائق والمصالح من ناحية ما يتّصل بها من خير، فوجود الخالق، أو صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في رسالته مثلا، يقوم على الإيمان به من سعادة الأفراد والأقوام أكثر ممّا يقوم به على الإيمان بعدل أبي بكر وعمر ... وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يترتّب عليها من الفلاح فوق ما يترتّب على زيادة أخ أو عيادة مريض...»[67]

وعلى الإنسان المصلح أو العالم الغيور أن يكون إصراره في إحقاق الحق وإبطال الباطل ضمن رسالته التي آمن بها وانبرى لتبليغها والدفاع عنها، وكذلك الشأن لكلّ

إنسان مسلم مهما كانت صفته بل رسالته التي أوكلت إليه، أن يتحلّى بالغيرة في تبليغها والحرص على آدائها، ولربّما من بلايا هذه الغيرة أن تغيب على كثير ممّن يتولون أمر الناس والقيام على شؤونهم فيكون حالهم عليهم أثقل من حال العدوّ الصريح الواضح، إذا الغيرة بهذا المفهوم أمر إيجابي يخفر كلّ إنسان على إبلاغ رسالته في أفضل حال وظرف.

فكلّما غلبت الغيرة والمحافظة على المصلحة على نفوس أفراد المجتمع ومسؤوليّة حكّامه وعلمائه، إلاّ استقامت سيرة المجتمع، وعلت سمعته البلادي بين الأمم، لذلك فواجب كلّ المسلمين جميعا تربية النشء على الشعور بالغيرة على دينهم ولغتهم ومجتمعهم وكلّ قيمهم حتى يكونوا من أنصار المصالح وإعلاء الأمّة وسلامة أفراده.

**الأس الثالث:** هو أن يكون المصلح المسلم مدفوعا إلى ذلك بغاية إبعاد الأمّة التي ينتمي إليها ويعتقد بدينها ولغتها وهو ما عبّر عنه الخضر حسين بأصول سعادة الأمّة[68] التي لا يمكن أن تتحقّق عبر التاريخ إلاّ بيقظة العقول وانتظام العمل وتحقّق مدنيّة الإنسان والتزام أفراد المجموعة بما يفيد البلاد والعباد راسخين لأنفسهم منهجا قوامه القرآن الكريم في تحقيق إنسانيّة الإنسان وخلافة الله في أرضه «فسعادة الأمّة أن تستنير عقولها، وتسموا أخلاقها، وتغتبط بالنّظم التي تساس بها وترضى عن طريق تطبيقها، وترتاح إلى تنفيذها وتأمن أن تمتدّ يد غريبة إلى حقّ من حقوقها...»[69]

والمعلوم أنّ العقول لا يمكن أن تصقل إلاّ بالعم لنافع المآلات السليم المضامين الواقعي في معالجة قضايا المجتمع الشامل بكلّ درجات العقول من النشأة الأولى إلى كلّ مراحل العمل انتهاء بالشيخوخة وإرهاصاتها، على أن يكون هذا العلم مُشاعا بين كلّ فئات المجتمع فلا تمكن فيه طبقة أو جيل، وتقوم منه اخرى، فلا يمكن أن يكون مجاني التناول لفئة وبمقابل مشط لفئات أخرى، وأن يكون العلم أمرا محلّ إجماع الناس لأنّه يجب على مشعل الحاضر ويؤسس لتطلّعات القادم والمستقبل، فإذا تربّى الجيل على حبّ العلم والصبر في تحصيله آنس المجتمع من نفسه كفاءة بلوغ المرام وتحقيق معالم النهضة الاقتصاديّة وتش قرائح الاختراع والابتكار وازدهار الصنائع والحرف. ولا يمكن أن يؤدّي هذا ما لم تتوفّر الأخلاق السامية فيها تستقيم الأعمال وتنتظم المعاملات بين الناس «فالمعاملات الرابحة لا تدوم في تمساك وصفاء إلاّ أن تكون محفوظة بنحو الصدق والأمانة والحلم، وسماحة النفس، ورقّة العاطفة، وهذا الوجه من وجوه السعادة ملقى في عهده من يتولّى أمر التربية كالأمهات والآباء

ورجال التربية والتعليم، ولا يكون في الآباء والأمهات والمعلمين كفاية لأن يخرج الطفل والفتى من بين أيديهم طاهر السريرة، مستقيم السيرة، حتى يكون التعليم متوازنا ضاربا بأشعّته في جميع المدارس أولية كانت وعليا ... وإذا وصلت التربية الدينيّة إلى النفوس من طريقهم الصحيح وما شئت بعد من من عزّة النفس وكبر الهمّة، تلك خصال لا تثبت أصول وتعلو فروعها إلاّ أن يتفيأ عليها ظلال الهداية ذات اليمين وذات الشمال »[70]

فإذا تحقّقت ذلك توفّــرت وسائل الثورة المادية فتتوفّر مرافق الحياة، والعيش الكريم الذي يهيئ لكلّ أفراد المجتمع حياة تستجيب لكلّ مطامحه وتطلّعاته، فلا يُعدم فيها فقير ولا يفوز بها غنيّ، فيحقّق المجتمع سعادته ويضحّي من أجل الحفاظ على دولته طالما أنّ الجميع مطمئن إلى دولته وحكامه في تعهد البؤساء واليتامى والأرامل وتوفير أرزاقهم إذا عجـــزوا، ومعالجة مرضاهم إذا سقموا... »[71]

ويتحقّــق مجال السعادة في المجتمع بحلول العدل والمساواة والسّهر تنفيذ ضرع الله وكلّ القوانين المنشقة إليه والمقتبسة منه، والواقع أنّ سعادة الأمم والمجتمعات يوم رهينة تجارب بين الحاكم في تطبيق الشريعة وفق قوله صلى الله عليه وسلم: " **ما من عبد يسترِ عليه الله رغبــــة فلم يحطها بنصـــــح، إلاّ لم يجد ريح الجنّة**»[72] ورعيّته مطالبة بالسمع والطاعة فيما أطاع الحاكم «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يُأمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة... »[73]

والدافع في سعادة الشعوب مسؤوليّة مشتركة وخاصّة الرؤيا عند الحكام في مختلف درجات المسؤوليّة، قال – تعالى- : **الذين آمنوا وكانوا يتّقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم**. وعلى هذا الأمر في مناهج نظريّة حسين لا صلاحيّة بمقوّماتها التي ذكرنا يمكن أن تسلمها إلا من التي هو عليها شريطة أن تسلم من العراقيل والمثبّطات التي تحدّ من كنجاحها فيما أسميناه بالمحاذير.

## المطلب الثاني ـ محاذير النظرية الإصلاحية:

إن أية نظرية اجتماعية أو فكرية أو سياسية أو اقتصادية إنما تقوم على دواعم وأسس صلبة ومتينة إذا أريد بها البقاء والنجاح، ومناهج واضحة، سهلة التمثل والانتاج حتى يمكن أن تتواصل هذه النظرية وتجد طريقها إلى النجاح والاستثمار والتطبيق.

ولعل نظرية الإصلاح عند الخضر حسين لا تشذ في صفاتها عما ذكر شريطة أن تخلو طريقها من الحقبات والمحاذير والصعوبات التي قد تحول دون التطبيق، وقد

أشار الخضر حسين إلى ذلك من خلال أمرين اثنين هما الحرص على الانحراف بالدين في المجتمع في المجتمع[74] وضلالة فصل الدين عن السياسة عند بعض الشعوب[75]

فالانحراف عن الدّين ســمة من سمات البشر ولكن خطرها يمكن في تعاظمها والدخول إلى مرحلة الانشقاق والتقاتل وفقدان المجتمع صفة وحدته وتلاحمه، وطبيعة الإنسان التي تميل أحيانا إلى التراضي تقابل طبيعة أخرى تميل إلى المقاومة والإصلاح ولعل هذا ما عاشه ويعيشه المجتمع الإسلامي منذ القديم، فيسكت على وجود الظواهر السنية مثل الانحراف عن الدين ويمكن سرعان ما يعد ولمقاومتها وعلاجها، ويبتغي عند هانيت دواء وعلاج بين كر وفر مضيعا الوقت والجهد ومفوتا على نفسه المصالح وغيرها مما يدفعه إلى التقدم.

وليس الانحراف في وقعه صفة وإنما يسبق عادة بالجهل والدعايات الباطلة والسكوت عن كل ما يسيئ إلى الدين والمجتمع، فإذا حل الانحراف المذكور حدثت القسمة بين الأفراد والجماعات وعمت البدع والضلالات وساءت الأخلاق وانعدمت القيم وانقلبت المفاهيم التي تجتمع فتضعف العقيدة في نفوس البشر، وتتراكم عقبات التضليل والمنع والحيلولة دون بلوغ الإصلاحات هدفها. فيصبح الدين عندها مثار نزاع بين الجهلة والمتعلمين، كل يدلي بدلوه ويفسر وفق مزاجه مع اختلاف الدافع والمثال، فهذا يقلد الغرب في خروجه عن الدين وتمثله بضوابط اخترعها لنفسه، وذلك متمثل بالمتزمتين الذين يمثلون خطرا على الدين لجلهم به، فيسيئون إليه من حيث أرادوا نشره ومناصرته.

وما انتشار الدعاة الغربيين وتركز نشاطهم على التسميات المسلم بغاية بتنصيره أو يهودية مدفوعين لمخططات سياسية عملاقة وأموال وفيرة طائلة، وفي الجهة الأخرى نجد من ادعوا للإسلام حبا غير وجوبي من خلال الأساطير والجهل بأحدث التقنيات، وهم في الواقع يخدمون مصلحة الغرب في الشق الأول، بل أكثر من ذلك التعصب الأعمى الذي يقودهم إلى أنّ من لا يكون على شاكلتهم فهو عدوّ لهم، تجب مقاومته بل الإجهاز عليه، وما يعيشه العالم الإسلامي بين أفراده باسم الإسلام إلاّ دليل واضح للجهل بالدين وتحويله إلى مطية أخرى لبلوغ أغراض سطرها الغير وقبل بها الجهلة المضالين والمظلين.

ولعلّ هذا الأمر يخسر المجتمع الإسلامي الوقت والمال للدفاع فنذكر "بمنتهى الأسف أنّ هذا العنف الذي يدافع عن الإسلام من الواعين المعتدلين، إنّما يقضي نصيبا من

حياته في الدفاع عن الإسلام حتّى يتبوّأ مقعدا لدعاة المصلحين، حيث يرى أن بضاعة الإزدراء بالدين نافق..." والأخطر في كلّ هذا هو آثار الانحراف وما تجر من ويلات داخل المجتمع، فتقوض أركان الفكر، فبينما ظلّ الناس عن الأدب الرفيع والعمل الرشيد، وتصبح المتعة المادية العاجلة هي الهدف الأسمى، وكل الطرق إليها سهلة ومباحة من أجل تحقيق مصالح آنية وغايات شخصية تغذيها رغبة الأعداء في استضعافهم المسلمين وقوة الإسلام.

ولعلّ هذا من المرض العضال الذي مازال منتشرا في أوصال العالم الإسلامي اليوم.

من خلال الأعداء وأصدقاء الأعداء من ضعاف المسلمين وأتباع الغرب المعتقدين، فتوالف الخضر كتابة "المعروف" نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم[76] ، وقد بيّن حسين أنّ هذا الأمر في رأيه لا يستقيم لأنّه متأثّر بالنظرة الغربيّة للمجتمعات اللائكيّة التي لا تعرف بالدين مصدرا للحكم منطلقا من حقائق ثلاثيّة نفي تقديره أوّلها عمومية رسالة الرسول صلى الله عليه وسلّم إذ هي موجّهة إلى كلّ البشر، وثانيها أنّها مشتملة على شريعة بنصوص القرآنيّة التي تجعل من الإسلام تتناهى والوقائع لا تتناهى فهي قادرة على الإجابة على كلّ حدث ونازلة، وثالثها انّ هذه الشريعة قادرة على سياسة الأمم وهي أفضل ما يحتكم إليه عند التنازع والخلاف.

ويرى أنّ عموم المسلمين أجمعوا على هذه المميّزات السابقة ويردّ على الذين يخالفون بقوله: «فتت مدلية الشهوات أشخاصا ينتمون إلى الإسلام، فانحرفت بهم عن المحجّة، وأدركوا أنّ مجاهدتهم بإنكار رسالة المصطفى ستسقطهم في ساب المسلمين دفعة، فل يبلغون من فتنة الأمّة مأربا، فبيّنوا أن يبقوا ثوب الإسلام على أكتافهم، ويحرّكوا بمدحه في بعض المجالس ألسنتهم أو في بعض الصحف أقلامهم، لي يركن الغافلون من المسلمين إليهم...»[77] حتى يقول: «فيقذفوا من وراء ريائهم، وثقة بعض الناس بهم ما شاؤوا من آراء خاسرة، ويزعموا أنّ هذه الآراء في هداية الإسلام، او أنّ الإسلام لا ينكرها...»[78]

وأطنب الخضر حسين في شتى الأغراض واو كلّ الناس من العلماء والفقهاء واستنباط الأقلام التي يمكن أن تراعي ظروف البشر وأحوالهم في الزمان والمكان، وذلك بغاية إبقاء الإسلام وقيمه حاضرة في أذهان الناس، منبّه أنّ هذه النظريّة –فصل الدين عن السياسة- إنّما مارسها الغرب في الأوطان الإسلاميّة التي استعمرتها، لأنّه يؤمن انّ مضامين الإسلام نابذة للعبوديّة والاستعمار والهيمنة والاستعباد.

وقد أكّد في أكثر من موضع أنّ مدنيّة الإسلام قائمة في أصوله وأركانه الداعية إلى تحرّر الإنسان وتحميله مسؤوليّة إعمار الكون بعد أن يكون قادرا فردا أو جماعة على التعايش مع الآخرين مسلمين وغيرهم.

وما انتشار الدعاة الغربيين وتركّز نشاطهم على الشباب المسلم بغاية تنصيره أو تهويده مدفوعين لمخطّطات سياسيّة عملاقة وأموال وفيرة طائلة، وفي الجهة الأخرى نجد من ادّعوا الإسلام حبّا فيروّجونه من خلال الأساطير والجهل بأحدث التقنيات، وهم في الواقع يخدمون مصلحة الغرب من الشــقّ الأوّل، بل أكثر من ذلك التعصّب الأعمى، الذي يقودهم إلى أنّ من لا يكون على شاكلتهم فهو عدوّ لهم تجب مقاومته بل الإجهاز عليه، وما يعيشه العالم الإسلام بين أفراده باسم الإسلام إلاّ دليل واضح للجهل بالدين وتحويله إلى مطيّة اخرى لبلوغ أغراض سطرها الغير وقبل لا الجهلة الضالين والمضلّين.

ولعلّ هذا الأمر يخسر المجتمع الإسلامي الوقت والمال للدفاع فنذكر «بمنتهى الأسف أنّ هذا العنف الذي يدافع عن الإسلام من الواعين والمعتدلين إنّما يقضي نصيبا من حياته في الدفاع عن الإسلام حتى يتبوّأ مقعد الدعاة المصلحين، حيث يرى أنّ بضاعة الازدراء بالدين نافقة...». والأخطر من كلّ هذا هو آثار الانحراف وما تجرّه من ويلات داخل المجتمع، فنقوض أركان الفكر، فيتغاضى الناس عن الأدب الرفيع والعمل الرشيد، وتصبح المتعة الماديّة العاجلة هي الهدف الأسمى، وكل الطرق إليها سهلة ومباحة من أجل تحقيق مصالح آنيّة وغايات شخصيّة تغذيها رغبة الأعداء في استضعاف همّ المسلمين وقرّ الإسلام.

ولعلّ هذا من المرض العضال الذي مازال مستقرّا في أوصال العالم الإسلامي اليوم من خلال الأعداء، وأصدقاء الأعداء من ضعاف المسلمين وأتباع الغرب المعتقدين فيه الرفقة والكمال، ومتى أدركنا هذا الأمر هان علينا معالجة المجتمع من هذه العاهات ومقومة هذه الضلالات لتخلص الدعوة إلى الإصلاح لبلوغ مراميها وتتجاوز العقبات مثل هذه وغيرها، فتصحيح العقيدة ولّد الإقبال على العلوم في توازن وتعقّل ودراسة أثار السلف في غير تعصّب، والإيمان بالواجب البشري في خدمة دينيّة ووطنيّة والمحافظة على هويّته كفيل بأن يحفظ للأمّة ودّها وللمجتمع رفعته ومناعته.

ويورد الخضر حسين فيما يذكر في هذا الجانب ما سمّاه بضلالة فصل الدين الدولة[79] وقد ذهب إلى هذا الرأي من خلال ردّه على علي عبد الرزاق في كتابه ال"الإسلام وأصول الحكم"[80]

خلاصة القول في نهاية هذا البحث الذي أردناه بيانا لنظريّة الشيخ الزيتوني الأزهري التونسي محمد الخضر حسين في إصلاح المجتمع إنّما أقامها على الأسس التي يراها أكيدة وأساسيّة أكثر من غيرها في إقامة الفكرة وهي الأخذ بالعلم وأسبابه ومضامينه، وأهدافه وما يتيحه للمجتمع من قدرة ومناعة، وكذلك إقامة القضاء العادل من خلال الصبر والثبات على المبدأ والتحلّي بالإرادة القويّة وتجنّب المحاك الكثيرة مثل الانحراف بالدين عن مساره أو استثماره في المصالح الذاتيّة التي تضرّ بالدين من ناحية وتؤذي الكثيرين من ناحية أخرى.

ولعلّنا بهذه الإشارات نكو قد نبهنا إلى أنّ الشيخ الخضر حسين قد عقد للإصلاح منهجا كاملا ضمنه في رسائله المعروفة برسائل الإصلاح، وطبقه فيما اطّلع ب ه في حياته العلميّة والمهنيّة النضاليّة، موجّها كلامه إلى القارئ: «وسيرى القارئ إلا المعنى أني قد طرقت في هذه الرسائل نواحي هي في حاجة إلى أن تبحث بفكر لا يتعصّب لقديم ولا نفس جديد يعتمد الرامي حيث يثبته الدليل، ويتقبل الحكم حتى لاحت بجانبه حكمة، ويق بالرواية بعد أن يسلمها النقد إلى صدق...»[81]

## الخاتمة:

إنّ فكر الشـــــيخ محمد الخضر حسين يمثّل تجربة إصلاحية رائدة جمعت بين الأصالة والاجتهاد والوعي بمتطلبات العصر. فقد سعى، من خلال مشروعه الفكري، إلى إحياء القيم الإسلامية الصحيحة، وترسيخ منهج علمي معتدل يقوم على الحوار، ومحاربة الجهل والانحراف دون تشدد أو انغلاق. ومن خلال مواقفه العلمية والنضالية، أثبت الشيخ أنّ الإصلاح الحقيقي يبدأ ببناء الإنسان علميًا وأخلاقيًا، ثم يمتدّ ليشمل المجتمع ومؤسساته. وهكذا يظلّ تراثه الإصلاحي دليلًا على قدرة الفكر الإسلامي على التجدد، وعلى أهمية العلماء في قيادة نهضات الأمة وصون هويتها.

## التوصـــــيات:

ـ إبراز أن الإصلاح يبدأ بالإنسان ثم يمتد للمجتمع.
ـ الإشارة باختصار إلى السيرة والمناهج الإصلاحية للشيخ.
ـ بعد مستقبلي أو تطبيقي: دعوة القارئ للتأمل في أهمية فكر الشيخ اليوم.
ـ تلخيص الإرث الإصلاحي بأسلوب مؤثر وجاذب.
ـ التوازن بين الأصالة والحداثة: التأكيد على اجتهاد الشيخ وربطه بمتطلبات العصر.
ـ تسليط الضوء على القيم الأساسية: الحرية، العدالة، محاربة الجهل والانحراف.

والله وليّ التوفيق

## بيان تضارب المصالح

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة.

## الهوامـــــــــــش :

1- سويح المرسي محمود، رؤى الإصلاح عد الإمام محمد الخضر حسين، نشر بسلسلة عالم المعرفة،
2- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط3، 1414هـ/2004م، ج2، ص 512.
3- م. ن، ص 263.
4- عبود أميمة مصطفى، مفهوم الإصلاح السياسي، نشر كليّة الاقتصاد، القاهرة، د. ت، ج2، ص 230.
5- زرمان محمد، فلسفة التجديد الإسلامي (نموذج البشير البراهمي)، دار التيسير، القاهرة، 1419هـ/1999م، ص 32.
6- البهي محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مطبعة أحمد علي مخيمر، القاهرة، د. ت، ص 32.
7- سورة هود، الآية 88.
8- التونسي علي الرضا، ابن أخ المترجم له، انظر: مقدّمة كتاب، دراسات في الشريعة للشيخ محم الخضر حسين، المطبعة التعاونيّة، مصر، 1395هـ/1975م، ص 4. خير الدين الزركلي، الأعلام، طبع دار العلم للملايين، بيروت، 2002، ج2، ص 102.
9- م. ن.
10- الزركلي، خير الدين، الاعلام، م. س، ج8، ص 213.
11- شولح المرسي محمود، رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين، نشر سلسلة كتاب الأمّة، عدد 159، ط1، 1435هـ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، دولة قطر، ص 63.
12-الزركلي، خير الدين، الاعلام، م. س، ج6، ص 203، ج4، ص 54.
13- شولح المرسي محمود، رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين، م. س، ص 64.
14- نشر المطبعة السلفيّة، القاهرة، 1353هـ/1934م.
15- انظر: مقدّمة كتاب دراسات في الشريعة للشيخ الخضر حسين، م. س.
16- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، عناية وتحقيق ابن أخيه علي الرضا الحسين، طبع دار النوادر، سوريا ولبنان والكويت، 1431هـ-2010م.
17- البيومي محمد رجب، النهضة الإسلام]ة المعاصرة في سير أعلام المعاصرين، دار القلم، بيروت، ط1، 1995، ج1، ص 56.
18- شولح المرسي محمود، رؤى الإصلاح عند الإمام محم الخضر حسين، م. س، ص 66.
19- محمود عبد الحليم، الحمد لله هذه حياتي، ط3، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص 110.

20- عبد العظيم علي، مشيخة الازهر، منذ إنشائها حتى الآن، مقال نشر بملحق هدية مجلة الأزهر، ص 4 بتصرّف، عدد شهر ربيع الأوّل، سنة 1422هـ، ص 147-162.
21- شولح المرسي محمود، رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين، م. س، ص 74.
22- محمد عبد الحليم، الحمد لله هذه حياتي، م. س، ص 110.
23- عبد العظيم علي، مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، م. س، ص 11.
24- م. ن.
25 - محمود عبد الحليم، الحمد لله هذه حياتي، م. س، ص 110.
26- عبد العظيم علي، مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، م. س، ص 11.
27- سورة العلق: الآيات 1-5.
28- حسين محمد الخضر، مسائل الصلاح، (م. س)، ج1، ص 85.
29- حسين محمد الخضر، مقال "العلم أمانة" مجلّة "نور الإسلام"، عدد4، مج 2، ربيع الثاني، 1350هـ، القاهرة، ومنشور أيضا ضمن رسائل الإصلاح، (م. س)، ص 81.
30- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ج1، ص 13-22.
31- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ج1، ص 13-22
32- م. ن.
33- حسين الخضر، مقال لمجلّة الهداية الإسلاميّة، "فضيلة الإخلاص"، ج3، مج8، رمضان 1354هـ، وج4، مج8، شوال 1354هـ، (م. س).
34- م. ن، بتصرّف.
35- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ج1، ص 96.
36- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ج1، ص 96.
37- (م. ن)، ص 22-28.
38- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ج1، ص 22-28.
39- م. ن، وفسّر المقال أيضا "العلماء والإصلاح" في مجلّة الهداية الإسلاميّة، ج11، مج2، ربيع الآخر، 1349هـ.
40- م. ن.
41- م. ن.
42- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ج1، ص 118.
43- م. ن.
44- م. ن.
45- انظر: مجلة "نور الإسلام"، العدد الأوّل، مج2، شهر المحرم، 1350هـ، القاهرة، وقد نشرها الراخيه ضمن نسخة "رسائل الإصلاح"، (م. س)، ص 92.
46- سورة المائدة: آية 42.
47- مسلم: الصحيح، ح ر: 1827.
48-سورة ص: الآية 26.
49- أبو داود: السنن، ح ر: 3573. / الترمذي: السنن، ح ر: 1322.
50- البخاري، جامع الصحيح، ح ر: 3475 و4304.
51- ابن تيمية، مزاج السنة، دار الكتب العلميّة، د. ت، ج6، ص 37. / ابن القيم، أعلام الموقعين، دار ابن الجوزي، د. ت، ج1، ص 86.

انظر: عهد عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري المتضمّن شروط القضاء ورسالة القاضي (14هـ). بسيوني محمود الشريف، الوثائق الدوليّة المعنيّة بحقوق الإنسان بجامعة "دي بول، شيكاغو.

52- القروي الخنشي، قضاة قرطبة، تح: إبراهيم الأبياري، ط2، 1410هـ/1989م، المكتبة الأندلسيّة، ص 259.

53- الحسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ص 97.

54- الحسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ص 97.

55- م. ن، ص 101.

56- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، (م. س)، ص 101.

57- الحسين محمد الخضر: مقال هدف العزيمة وقوّة الإرادة، مجلّة الهداية الإسلاميّة، ج2، مج 3، شهر رجب، 1349هـ.

58- الحسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، م. س، ص 186.

59- م. ن،

60- م. ن، ص 137.

61- م. ن، ص 138.

62- م. ن.

63- سورة آل عمران: الآية 159.

64- حسين محمد الخضر: مقال: "الغيرة على الحقائق والمصالح"، مجلة الهداية الإسلاميّة، ج3، مج3، شهر شعبان، 1349هـ. حسين محمد الخضر: مقال: "الغيرة على الحقائق والمصالح"، مجلة الهداية الإسلاميّة، ج3، مج3، شهر شعبان، 1349هـ.

65- م. ن، رسائل الإصلاح، م. س، ص 144.

66- حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، م. س، ص 146.

67- حسين محمد الخضر، مقال أصول سعادة الأمّة، مجلة الهداية الإسلاميّة ج1، مج3، جمادى الآخر، 1349هـ، رسائل الإصلاح، م. س، ص 130.

68- م. ن.

69 - م. ن، ص 131.

70- م. ن، ص132.

71- البخاري، الفتح الباري، كتاب الأحكام، ج6، ح ر: 2725/2612.

72- البخاري، الصحيح، ح ر: 7150.

73- سورة يونس: الآيتان: 63-64.

741- الحسين محمد خضر، الانحراف في الدين، مجلة الهداية الإسلامية، ج10، مج2، ربيع الأول، 1349ه.

751- الحسين، خضر، مقال ضلالة فصل الدين عن السياسة، مجلة الهداية الإسلامية، ج7، مج11، محرم 1358ه

وكذلك مجلة نور الإسلام، رسائل الإصلاح، م.س، ص185.

76- صدر الكتاب سنة 1925 ردّا على علي عبد الرزاق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم"، وقد تضمّن موضوع الخلافة في الإسلام والحكومة والإسلام والخلافة والحكومة في التاريخ، وقد طبع الكتاب عديد المرّات.
77- حسين محمد الخضر: رسائل الإصلاح، م. س، ص 186.
78- م. ن.
79 - حسين محمد الخضر، رسائل الإصلاح، م. س، ص 182.
80 - الإسلام وأصول الحكم، كصدر في 1925 وأحدث ضجّة لأنّه يرفض فكرة الخلافة...
81-من مقدّمة رسائل الإصلاح، ص 6.